

• المحاضرة الثانية

♦ الديانة المصرية القديمة

الديانة المصرية من أقدم الديانات، وهي بعيدة في ظهورها، واختلف العلماء في تحديدها وظهرت تفسيرات متعددة بخصوصها، ومن هذه التفسيرات أن الديانة المصرية القديمة:

- نتاج فكري أنتجه العقل البشري بناءً على مجموعة من الظواهر.
- نتاج عجز الإنسان أمام مجموعة من الظواهر.
- أصلها ديانة سماوية مرت بمراحل إلى أن انتقلت إلى الوثنية.

أول ما يلاحظه الدارس لديانات العالم القديم أن أشد الأمم تدينا المصريين القدماء. حتى لقد قال شيخ المؤرخين هيرودوت: "إن المصريين أشد البشر تدينا، ولا يعرف شعب بلغ في التدين درجتهم فيه، فإن صورهم بجملتها تمثل أناسا يصلون أما إله، وكتبهم في الجملة أسفار عبادة ونسك"¹.

كانت شدة تدينهم سببا في أن دخل الدين عنصرا عاملا قويا في كل أعمالهم الخاصة والعامة² (في جميع شؤون حياتهم).

يقول الشيخ محمد أبو زهرة: ولقد شده بعض العلماء بحال التدين هذه التي شملت المصريين وتغلغت في كل شيء عندهم إلى درجة تعاظم لديه أن يكونوا غير موحدين مع تلك القوة في التدين والتشدد فيه، فزعم لهذا أنهم كانوا في الجملة موحدين. وممن وقع في هذا العلامة ماسبيرو، فقد قال: "وكان إله المصريين واحدا، فردا، كاملا، عالما، بصيرا، لا يدرك بالحس، قائما بنفسه، حيا، له الملك في السماوات والأرض، لا يحتويه شيء، فهو أب الآباء، وأم الأمهات، لا يفنى، ولا يغيب، يملأ الدنيا، ليس كمثله شيء، ويوجد في كل مكان".

ويرد الشيخ محمد أبو زهرة: وهذا ليس من الحق في شيء؛ لأن المصريين لم يكونوا موحدين، لذا أدرك هذا المؤلف خطأه، فكتب في طبعة ثانية من كتابه ما نصه:

¹ مقارنات الأديان: الديانات القديمة، للشيخ محمد أبو زهرة، معهد الدراسات الإسلامية، نسخة مصورة، ص: 5.

² فالدين مسيطر حتى في الكتابة في الحاجات الخاصة، وفي الإرشادات الصحية، وفي أوامر الشرطة، وسلطان الحكم. انظر: المصدر السابق، ص: 5-6.

"تدلنا الآثار على أنه كان لكل من الرهبان منذ أزمان الأسرة الأولى آلهته الخاصة..."¹. وبالتالي الطعن في القول بالتوحيد وإثبات عكس ذلك.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه: فلا بد إذن أن نقول إن المصريين كانت ديانتهم تتغير، وعقائدهم تتبدل...².

سؤال: هل هذا الاختلاق والتعدد ينفي عدم وجود التوحيد؟

يقول الشيخ محمد أبو زهرة: ولقد ورد في القرآن الكريم ما يفيد أن يوسف عليه السلام، وهو نبي كريم من أنبياء الله دعاهم إلى عبادة الواحد القهار، فلقد ورد في سورة يوسف ما حكاه الله عنه من كلام لصاحبي السجن فقد قال حاكيا عنه: (إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون (37) واتبع ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون (38) يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار (39) ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون (40)) [يوسف: 37-40]. من هذا الخبر الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه نحكم مستيقنين أن دعوة إلى التوحيد قد وردت للمصريين³. كما أن دعوة موسى عليه السلام قد وردت على مصر.

❖ أسطورة عقيدة المصريين⁴

تعتمد العقيدة الرسمية عند قدماء المصريين على أسطورة قديمة ترجع إلى ما قبل التاريخ في نسبتها، وهي أن إله الإنبات والخصوبة أو إله النيل واسمه أوزيريس، قد عمل على تكوين مملكة إلهية مكونة من أخته وزوجته إلهة الحكمة والتشريع والسحر واسمها إيزيس، ووزير إله التدبير والعلم واسمه توت وغيرهم من الآلهة. ولكن أخا أوزيريس واسمه سيت وهو إله الشر والقحط نفس على أخيه ما ناله من مكانة وإجلال ودفعه الحقد إلى إيذائه، فغدر به، فغدر به واحتال عليه حتى وضعه في تابوت ثم أقفله عليه وألقى به في اليم، لما تفقدته زوجته ولم تجده أخذت تنقب عنه حتى عثرت عليه ولكن قبل أن تتمكن من فتح التابوت هاجمها سيت وأخذ التابوت عنوة، ومزق أخاه اثنين وسبعين شلوا بعدد مقاطعات مصر إذ ذاك، ونشر هذه الأجزاء في المقاطعات،

¹ المرجع السابق، ص: 6.

² المرجع السابق، ص: 7.

³ المرجع السابق، ص: 8.

⁴ المرجع السابق، ص: 10-12.

في كل مقاطعة شلو، ولكن مع ذلك لم تستئس زوجته، بل ألقى الوفاء في قلبها شجاعة لا يأس معها، وبجد ودأب جمعت الأشلاء من كل مكان وألقت كل جزء في موضعه من الجسم، وقرأت عليه بعضا من التعاويذ والرقى السحرية، فعاد إلى الحياة، ولكنها حياة قصيرة، كانت بقدر ما أنسل ابنه هوروس ثم غادر هذه الحياة إلى الحياة الأخرى ليقوم بالحساب والميزان لأهل الدنيا.

وهنا تكون المعركة بين هوروس وعمه سيت، إذ ينكر نسب ابن أخيه ويدعي أنه الوريث الوحيد لعرش أخيه في المملكة الإلهية، ويرفع في سبيل ذلك دعوى إلى محكمة الآلهة، فتذهب إيزيس مدافعة عن ابنها وشرفها فتقضي المحكمة بثبوت النسب بشهادة توت، ولكن النزاع لا ينتهي بذلك؛ بل يأخذ كل يعمل على إفساد أعمال الآخر في الكون. وتكون دائرة هوروس في الإنتاج والعمارة، ودائرة سيت في الإفساد والتدمير.

وصار من آثار ذلك التناحر ما كان بين الوجه القبلي والوجه البحري من حروب مستمرة، بل قد صار كل رئيس من رئيسي الوجه القبلي والوجه البحري أحد هذين الإلهين.

واستمرت الحال على ذلك حتى جاء مينا الأول، فجمع في سلطانه حكم مصر العليا والسفلى، وأعلن أن الإلهين قد حلا في جسده، ومن ثم ابتدأت عقيدة تأليه الملك، أو حلول روح الإله فيه.

ولقد أخذت الفلسفة الدينية تعمل من ذلك الحين تعمل على التوفيق بين خلود الألوهية وفناء الجثمانية، لأن فرعون يموت كما يموت سائر الناس، والإله باق. فكيف يحل الباقي في الفاني !! ثم كيف يموت من ارتفع مرتبة الألوهية !! إن الحس يؤكد الموت، وعقائدهم تنافيه.

ولقد دفعتهم الرغبة الملحة في التوفيق بين ما يحسون وما يعتقدون إلى أن قالوا: إن روح الإله هوروس ذات ثلاث شعب:

- 1- أولها الروح الدنيا وهي التي تحل في فرعون الزمان، ثم تنتقل إلى من يليه، وتفيض عليه بقدسيته.
- 2- والثانية الروح العليا الحاكمة في السماوات والأرضين.
- 3- والثالثة روح تبقى في جسد فرعون الميت، وتقوم بالنصح لفرعون الحي، ولا تبقى هذه الروح إلا بقى الجسد متماسكا، ولذا أعملوا الحيلة لذلك، وبنوا الأهرام وشيدوها لتكون حفاظا للجسم.

❖ تقديس الحيوان عند قدماء المصريين¹

اختلفت عبارات المؤرخين في الأمر الذي حفز المصريين إلى عبادة الحيوان.

1. أن المصريين الأقدمين قبل أن تتوحد كلمتهم ... كانت قبائلهم تتنازع وتتناحر فينتصرون، وينهزمون، فيرمز المنتصرون لقراهم ببعض الحيوانات القوية ولقري خصومهم ببعض الحيوانات الضعيفة، وقد استمرت تلك الرموز دالة على ما تشير إليه ردحا طويلا من الزمان، ثم نسي الناس المعنى وبقي الرمز، وصارت أسماء تلك الحيوانات باقية في الأذهان مقرونة بالتقديس محاطة بهالة من التأليه، فقدست بلا فرق بين قوي وضعيف.
 2. الحيوانات ما كانت تُعبد لأنها آلهة ولكن لأنها رمز للآلهة، فكان لكل إله من آلهتهم رمز خاص به.
 3. علماء الدين من المصريين الأقدمين كانوا يعتقدون حلول الآلهة في الأجسام ... فأحلوا آلهتهم أحيانا في ثور، وأحيانا في قط، وأحيانا في غيرهما. وصاروا يعبدون هذه الحيوانات على أنها أوعية قد حلت فيها الآلهة، وليست هي الآلهة.
- ❖ اعتقادهم بالحياة الآخرة والنفس²

يقول الشيخ محمد أبو زهرة: لعل الأرواح ما في العقيدة المصرية القديمة، اعتقادهم بالحياة الآخرة، وأنها الباقية بعد هذه الدنيا الفانية.

وقد قام على أساسين:

- 1 - أن هذه الدنيا معترك يتنازع فيه الشر والخير والبر والفاجر...، فمن العدالة الإلهية إذن أن يكون يوم آخر يكون للأبرار على الفجار، وللأطهار لا الأشرار، وأن تكون الحياة الباقية لينتصر فيها الخير، وينتصف فيها من الشر.
- 2 - اعتقادهم في النفس الإنسانية: فهم يعتقدون وجود نفس تنفصل عن الجسم؛ وإن كانت تحل فيه. كانوا يعتقدون أن النفس لا تعيش إلا إذا كان الجسم سليما...، ولذا بذلوا أقصى الجهد في سبيل المحافظة على الجسم...، وقد بعث ذلك فيهم لأن يخترعوا تحنيط الموتى، وبقاء المومياة على هيئة من التماسك وعدم التحلل لكي تعود النفس إلى غلافها.

¹ المرجع السابق، ص: 14-15، باختصار.

² المرجع السابق، ص: 16-17، باختصار.